ISSN(Print): 1813-4521 OnLine ISSN:2663-7502
Journal Of the Iraqia University
available online at: https://www.mabdaa.edu.iq

زنوبيا ملكة تدمر ومشروعها الإمبراطوري في القرن الثالث الميلادي: من تولي الحكم إلى التوسع في مصر وسقوط تدمر (٢٦٧–٢٧٢م)

ا.د. علي حسين علي صالح
م.د وعدالله زيدان وهب
كلية التربية الأساسية قسم التاريخ

ملخص البحث

يتناول هذا البحث شخصية زنوبيا ملكة تدمر، ودورها في التحولات السياسية والعسكرية التي شهدتها الإمبراطورية الرومانية خلال القرن الثالث الميلادي، مسلطاً الضوء على ظروف توليها الحكم عقب وفاة زوجها أذينة، وطبيعة السلطة التي مارستها في إدارة شؤون تدمر، في ظل ما شهدته الإمبراطورية الرومانية من اضطرابات داخلية وتراجع في قدرتها على فرض سيطرتها على الأقاليم الشرقية. كما يبحث في مقومات القوة السياسية والاقتصادية والعسكرية التي استندت إليها زنوبيا في بناء مشروعها التوسعي، الذي تجاوز حدود تدمر ليشمل مناطق واسعة من المشرق، وصولاً إلى السيطرة على مصر نحو سنة ٢٧٠م، لما تمثله من أهمية استراتيجية واقتصادية في موازين القوى آنذاك. ويتناول البحث مظاهر تطور الطموح السياسي لزنوبيا، واتجاهه نحو إقامة سلطة إمبراطورية منافسة لروما، فضلاً عن دراسة العوامل التي أدت إلى تصاعد الصراع بينها وبين الإمبراطور أوريليان، الذي قاد حملات عسكرية لاستعادة الأقاليم الخارجة عن السيطرة الرومانية. وينتهي البحث بدراسة الحملة الرومانية على تدمر سنة ٢٧٢م، وسقوط المدينة وانهيار المشروع الإمبراطوري لزنوبيا، مع تحليل النتائج السياسية والعسكرية المترتبة على ذلك، وأثرها في مستقبل تدمر ومكانتها في التاريخ القديم. ويسعى البحث إلى تقديم قراءة تاريخية تحليلية لتجربة زنوبيا السياسية، وتحديد العوامل التي أسهمت في صعودها، والأسباب التي أدت إلى إخفاق مشروعها في مواجهة القوة الرومانية.

الكلمات المفتاحية: زنوبيا، تدمر، الإمبراطورية الرومانية، مصر، أوريليان، المشروع الإمبراطوري، القرن الثالث الميلادي

المقدمة :

تُعدّ تدمر من أبرز المراكز الحضارية والسياسية في المشرق القديم، إذ أسهم موقعها الجغرافي في تعزيز مكانتها بوصفها حلقة وصل بين الأقاليم الشرقية والغربية، ومركزاً مهماً للتجارة البرية التي ربطت بلاد الرافدين وبلاد الشام وشبه الجزيرة العربية بمناطق البحر المتوسط. وقد انعكست هذه الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية على مكانتها السياسية، ولا سيما خلال القرن الثالث الميلادي، حين شهدت الإمبراطورية الرومانية اضطرابات داخلية وأزمات سياسية وعسكرية أضعفت قدرتها على إحكام سيطرتها على بعض أقاليمها، الأمر الذي أتاح لقوى محلية وإقليمية فرصة توسيع نفوذها وتعزيز استقلالها السياسي.وفي خضم هذه التحولات برزت زنوبيا، ملكة تدمر، بوصفها إحدى الشخصيات النسائية التي أدت دوراً بارزاً في تاريخ الشرق القديم، إذ استطاعت أن تتولى إدارة شؤون المملكة عقب وفاة زوجها أذينة، مستندةً إلى ما تمتعت به تدمر من مقومات اقتصادية وعسكرية، وإلى المكانة السياسية التي اكتسبتها في عهد زوجها. ولم يقتصر دور زنوبيا على المحافظة على النفوذ التدمري، بل اتجهت إلى توسيعه من خلال سياسة نشطة استهدفت مناطق ذات أهمية استراتيجية واقتصادية، ولا سيما الأقاليم الشرقية التابعة للإمبراطورية الرومانية، وصولاً إلى مصر التي مثّلت السيطرة عليها تحولاً مهماً في مسار الصراع بين تدمر وروما.وقد مثّل التوسع التدمري في عهد زنوبيا مرحلة متقدمة في تطور الطموح السياسي لتدمر، إذ تجاوزت تحركاتها حدود النفوذ الإقليمي لتقترب من تأسيس سلطة إمبراطورية منافسة للسلطة الرومانية في الشرق. غير أن هذا التوجه أدى إلى تصاعد التوتر مع الإمبراطورية الرومانية، التي سعت إلى استعادة هيبتها ووحدة أراضيها في

عهد الإمبراطور أوريليان، فدخل الطرفان في مواجهة عسكرية انتهت بتراجع القوات التدمرية وسقوط تدمر سنة ٢٧٢م، وهو الحدث الذي شكّل نقطة تحول حاسمة في تاريخ المملكة ومشروع زنوبيا السياسي.وتتبع أهمية دراسة هذه الشخصية من ارتباط تجربتها بمجموعة من القضايا التاريخية المهمة، وفي مقدمتها طبيعة العلاقة بين تدمر وروما، ودور العامل الاقتصادي والاستراتيجي في بناء القوة السياسية، وأثر الأزمات الإمبراطورية في صعود القوى الإقليمية، فضلاً عن إمكانات القيادة السياسية والعسكرية في توسيع النفوذ وحدود تلك الإمكانات في مواجهة القوى الكبرى. كما تتيح دراسة تجربة زنوبيا فهماً أعمق للتحولات التي شهدها المشرق خلال القرن الثالث الميلادي، وللظروف التي أسهمت في نشوء مشروع سياسي طموح لم يكتب له الاستمرار.وانطلاقاً من ذلك، يسعى هذا البحث إلى دراسة شخصية زنوبيا وظروف توليها الحكم، وتحليل الأسس التي استند إليها مشروعها الإمبراطوري، وتتبع مراحل توسعها، مع التركيز على السيطرة على مصر وأهميتها في تعزيز النفوذ التدمري، وصولاً إلى المواجهة مع الإمبراطور أوريليان وسقوط تدمر. كما يهدف إلى الكشف عن أبرز العوامل السياسية والعسكرية والاقتصادية التي أسهمت في صعود زنوبيا، وتفسير الأسباب التي أدت إلى انهيار مشروعها، بالاعتماد على المنهج التاريخي التحليلي، من خلال تتبع الأحداث في سياقها الزمني وربطها بالظروف العامة التي شهدتها الإمبراطورية الرومانية والمشرق في تلك المرحلة.

أولاً: زنوبيا المرأة التاريخية

هي نائلة بنت عمرو بن الضرب بن حسان بن أذينة بن السميدع بن هومر العمليقي، وأباها عمرو بن الضرب وقد كان ملك العرب في أرض الحيرة[١]، وبمشارف الشام والجزيرة وقد قتل والدها من طرف جذيمة الأبرشي الذي كان ملك عرب الناحية بين الحيرة والأنبار في بادية العراق، وبسبب هذه الحادثة الأليمة صممت زنوبيا على الثأر لمقتل والدها، وبالفعل كان لها ذلك وتمكنت من قتل جذيمة الأبرشي عن طريق الحيلة والمكر بعد أن استدعته إلى قصرها الواقع على شاطئ الفرات الغربي، أن هذا الأمر كان من تدبير أخت لها تدعى زبيبة[٢]. وفي الكتابات التدمرية ذكرت باسم (بنت زباي) نسبة إلى والدها زباي، وتعني بنت العطية، ثم حور إلى الزباء، وبالنسبة لتسميتها بزنوبيا فقد عرفت من خلال بعض المخلفات الأثرية مثل القطع النقدية، فقد وجدت في متحف دمشق قطعة نقدية فريدة سكت في الإسكندرية أو أنطاكيا، كتب عليها سبتيميا زنوبيا، وهناك قطعة نقدية أخرى موجودة في متحف اللوفر بلندن باسم زنوبيا، ومنها نسخة جصية، وعلى عمود عال في شارع الأعمدة في تدمر تمثال لزنوبيا أقيم في أوت ٢٧١م، وقد نقشت عليه كتابة باللغتين اليونانية والتدمرية ونصها يقول: "إلى سيدتهم سبتيميا زنوبيا أكثر الملكات شهرة وتقوى[3]. وكانت زنوبيا تحب ركوب الخيل وتتجلى بروح المغامرة ، كما كانت تحظى بكثير من الأبهة من طرف حاشيتها حيث كانوا يحيونها بالسجود على طريقة أكاسرة الفرس، كما كانت ترتدي في المناسبات الرسمية ثوبا أرجوانيا أنيقا موشى بالجواهر مشدودا عند الخصر وتترك أحد ذراعيها عاريا حتى الكتف، كما كانت تركب عربتها المرصعة بالأحجار الثمينة والخوذة على رأسها[٤] وقد كانت ذات ثقافة عالية، بسبب ما تلقته من تعليم بفضل العديد من المدرسين، ففي سن الخامسة بدأت تعليمها على يد مدرس سوري اسمه "مولاق"، وهو من تلقت على يديه مبادئ القراءة والكتابة، كما تعلمت اللغة اللاتينية وكذلك الإغريقية[٥]. وكانت زنوبيا تتميز بالشجاعة ورجاحة عقلها وبحسن أدارتها ودهاءها .

ثانياً: توليها للحكم

تولت زنوبيا حكم تدمر بعد مقتل زوجها أذينة الثاني من طرف ابن أخيه معنى بن خيران"، ويسمى كذلك ماؤنيوس حوالي ٢٦٦ أو ٢٦٧م، مع جماعة من أعوانه وسط احتفال كبير، وقتل معه ابنه هيرودس وهو ليس ابن زنوبيا طبعا، وتضاربت الآراء حول حقيقة من قتله فهناك من نسب جريمة اغتيال أذينة للرومان الذين أدركوا خطورته على إمبراطوريتهم فعملوا على التخلص منه، وهناك من ينسبها لزنوبيا ويرجح أنها هي من كانت وراء قتله خوفا من أن تفقد وراثة العرش والذي سوف يذهب إلى ابن ضرتها هيرودس وهناك من يقول أنه ربما هم عصبة من الوطنيين رأوا بأن أذينة قد أصبح أداة طيعة في أيدي الرومان فقرروا التخلص منه، إضافة إلى هذا فالظروف التي أعقبت مقتل أذينة تثير الشك فقد بايع الجيش القاتل معنى دون ثورة، وأهل حمص قاموا بقتل القاتل بعد فترة ثم تم تنصيب زنوبيا على سدة الحكم[٦]. وقد تولت زنوبيا عرش تدمر كوصية على ولدها القاصر وهب اللات"، بعد مقتل والده أذينة الثاني، ويعرف في اليونانية ب(أثينودورس) علمته اللاتينية والفروسية وهيأته ليكون ملكا كقياصرة الروم وأكاسرة الفرس، ومنذ أن تولت الملك بدأت تعمل على تكوين دولة عربية قوية تحت زعامتها، وقد نالت زنوبيا من الرومان لقب سبتيميا وهو من أكبر ألقاب الشرف عندهم[٧]. وقد توجهت الملكة زنوبيا بمجرد توليها لعرش تدمر بخطاب للشعب، أعلنت فيه سحب جميع الصلاحيات التي كانت ممنوحة لوورود من طرف الملك المتوفى أذينة الثاني زوج زنوبيا، وكانت تقصد بهذا أنها من الآن فصاعدا هي المسؤولة على استلام زمام السلطة ومباشرة الحكم[٨]. وقد قامت زنوبيا بتوجيه رسالة إلى حاكم أنطاكية كرد على رسالة وجهها هذا الأخير

إلى ابنها وهب اللات قالت فيها " أن ملكة تدمر تأمل في الحفاظ على علاقات طيبة مع الإمبراطور، وهذه العلاقات هي التي وحدت شعبينا "، وقد كانت تعني بقولها هذا أنه إذا كان القيصر يحكم روما فزنوبيا هي سيدة تدمر، وقد اعترف الإمبراطور الروماني غالينوس بوهب اللات الوريث الشرعي والوحيد لملك أذينة الثاني[٩]. ومن جهة أخرى قامت بإرسال رسالة إلى الملك الفارسي سابور تعلمه فيها بأن الأمور تغيرت وما كان في الماضي رحل مع أذينة وأنها لطالما كانت غير مؤيدة لحروب زوجها ضدهم، كما أعلمته بوفاة زوجها أذينة ورحيل القوات الرومانية عن تدمر، وقد قام هذا الأخير من جهته بإرسال رسالة إلى الملكة زنوبيا يهنئها على المنصب الجديد، كما أخبرها بأن طريق القوافل مفتوح وآمن[١٠].

ووفق تلك الرؤية نستنتج أن تصرف الملكة زنوبيا هذا إنما ينم عن حكمتها ودهائها في تسيير سياسة مملكتها وهي التي تعلم أنها الحلقة الأضعف بين الفرس والرومان، ولهذا فهي تريد أن تأمن شر الطرفين وذلك عن طريق إتباع سياسة الود، لتكسب وقتا أكبر من أجل إعادة ترتيب أمورها وتحقيق أطماعها الكبرى في إنشاء إمبراطورية شرقية تحت قيادتها، خاصة وأن المملكة التدمرية كانت تمر بظروف حرجة عقب مقتل أذينة، والدخول في صراع مع أحد هذين الطرفين سوف يدخل تدمر في مشاكل هي في غنى عنها، وبالتالي إحباط المشروع الإمبراطوري .

ثالثاً: مشروع الإمبراطوري للملكة زنوبيا

١) بداية التوسع

لقد قامت الملكة زنوبيا بمجرد توليها للحكم من أن تجمع الى صفها القبائل العربية، فاستأجرت خيرة فرسانها وأدمجتهم في صفوف الجيش التدمري وهذا طبعا لما لمسته فيهم من بسالة وقوة لا يستهان بها، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على أن هناك نية مبيته من طرف هاته الملكة في توسيع حدود مملكتها وبالتالي تقويتها بغض النظر إن كانت سوف تتعدى على حدود الأراضي التابعة للإمبراطورية الرومانية. ومن الجانب الآخر فقد كانت روما تحت قبضة الإمبراطور غالينوس، هذا الأخير الذي كان قومه يتهمونه بالتراخي والفساد والدعارة مما حز في نفسه وأخذ يبحث لنفسه عن مجد يعيد به سمعته وهيبته، وتراءت الأنباء إلى مسمع الإمبراطور بأن الملكة زنوبيا تتجهز لشن حملة على بثنية التي كانت تابعة لممتلكات الإمبراطورية الرومانية[١١]. خاف هذا الأخير على ملكه وبتحريض من مجلس الشيوخ الروماني جهز حملة بقيادة القائد هر اقليانس مدعيا أنه ذاهب لمحاربة الفرس، ولكن الملكة زنوبيا وبفضل حنكتها ودهائها تفطنت لهذه الخدعة وتجهزت الملاقاة الجيش الروماني، وبالفعل التقى الجيشان وألحق الجيش التدمري بالجيش الروماني هزيمة نكراء مع مقتل قائد الحملة هر اقليانس، وقد كانت هذه الحادثة هي الشرارة التي ألهبت نار العداوة بين روما وتدمر[١٢] . ولم تمر فترة طويلة على هزيمة روما أمام التدمريين حتى اغتيل الإمبراطور غالينوس وخلفه على عرش روما الإمبراطور أورليوس كلوديوس (Aurelius Claudius) سنة ٢٦٨ م، وبمجرد اعتلاء الإمبراطور الجديد عرش روما حتى تعالت صيحات مجلس الشيوخ الروماني واستغاثتهم من خطر الملكة زنوبيا يا كلوديوس أغسطس نجنا من زينب وفكتوريا، ولكن في هذه الفترة كانت الإمبراطورية الرومانية تتخبط في العديد من المشاكل وتحيط بها الأخطار من كل جانب وعلى رأسها خطر القبائل الجرمانية من القوط والجرمان وغيرهم، لذا ارتأى الإمبراطور أورليوس أن يقوم بدرء خطر القبائل المتبربرة أولا لأنها في نظره كانت الأخطر على سلامة الإمبراطورية الرومانية وترك أمر الملكة زنوبيا جانبا ليس متناسيا خطرها ولكن ليتفرغ لها تماما لأنه كان يعلم جيدا مدى قوة هذه الملكة وقوة الجيش الذي تحت سيطرتها فتاريخ الجيش التدمري حافل بالانتصارات[١٣]. ومع هذا فقد أعرب الإمبراطور أورليوس على عجزه في تلك الفترة من تلبية نداء مجلس الشيوخ الروماني لدرء خطر الملكة زنوبيا، وهذا من خلال الرسالة التي وجهها إلى مجلس الشيوخ الروماني والتي يقول فيها : " ويندى جبيني خجلا لدى تذكري أن جميع قواسي منتظمون في سلك جيوش زينب يخدمونها[١٤] .

٢) السيطرة على مصر

ظلت الملكة زنوبيا تراقب ما يحدث في روما وما يحيط بها من أخطار وأخذت تتحين الفرص لتحقيق مشروعها بتوسيع حدود مملكتها وإنشاء إمبراطورية عظمى على أنقاض الإمبراطورية الرومانية، وأخذت تتطلع إلى السيطرة على مصر لأنها من أهم نقاط القوة الرومانية في المشرق، وما شجعها على ذلك هو النداء الذي وجهه لها أحد المعجبين بها والمدعو تيماجينيس اليوناني الأصل والحاقد على الرومان إلى جانب الوطنيين والمعارضين لحكم الرومان، مستغلين الفراغ الذي تركه الحاكم الروماني في مصر بروبوس والذي امتثل لأوامر الإمبراطور أورليوس للخروج على رأس الأسطول الروماني بالإسكندرية لمطاردة القوط ولمنعهم من الهرب عبر المضايق[١٥] إضافة إلى تيماجينيس أظهر فيرموس (Firmus) وهو رجل ثري جدا صديق زنوبيا من مدينة ٩سلوقية الشامية استعداده لمساعدة الملكة زنوبيا وإمدادها بالمال وبكل شيء، في هذا الوقت حزمت الملكة زنوبيا أمورها وأرسلت قائدها زبدا على رأس جيش قوامه حوالي سبعون ألف رجل، وعند دخوله الى مصر التقى بالجيش الروماني المؤلف من خمسين ألف مقاتل وكانت الغلبة في الأخير للتدمريين، وبعد أن استقر لهم الأمر وضبط أحوال الأقطار المصرية قرر زبدا العودة إلى تدمر

تاركا في مصر حامية قوامها خمسة آلاف رجل، ظنا منه أن هذه الحامية تكفي لحماية الحكم التدمري في مصر كما قامت زنوبيا بتعيين فيرموس نائبا عليها في مصر[١٦]. لما علم بروبوس (Propos) بالهجوم التدمري على مصر عاد مسرعا وجمع إلى جانب قواته الموالين له من المصريين ونهض على التدمريين وأعمل فيهم السيف وطردهم من مصر، فلما علمت الملكة زنوبيا بما حدث في مصر فقررت إعادة إرسال قائدها زيدا مرة ثانية إلى مصر وجرت معارك من جديد بين الجيش التدمري والجيش الروماني في بابلون (الفسطاط)، وانتصر التدمريون في نهاية المطاف، وبهذا أصبحت مصرا إقليما تابعا لتدمر إبتداءا من سنة ٢٧٠م . وبفضل هذا الفتح العظيم الذي تحقق على يد الملكة زنوبيا لمصر تحقق لهذه الملكة ما كانت تحلم به، وبالفعل اتسعت حدود مملكتها فأصبحت يحدها جنوبا ضفة النيل، ومن الشمال أقاصي آسيا، ومن الغرب سواحل البحر الأبيض المتوسط، ومن الشرق نهري دجلة والفرات، وهي المرة الأولى في تاريخ العرب التي تتمكن فيها إحدى الممالك العربية من من السيطرة على مثل هذه المساحة الشاسعة من الأراضي والممالك[١٧].

أصبحت هذه الملكة بفضل قوتها وما حققته من فتوحات تحتل مكانة كبيرة عند الكثير من ملوك تلك الفترة ولم يعد أحد منهم قادرا على التجاسر عليها، ومن جهته الإمبراطور الروماني أورليوس اعترف بحقها في السيطرة على مصر، ولتؤكد زنوبيا سيادتها على القطر المصري ولتأمن شر الرومان عقدت اتفاقا معهم على بقاء جيوش تدمر في مصر مع اعتراف زنوبيا بسيادة الرومان على وادي النيل، وكان كل ذلك أواخر أيام حكم كلوديوس، وفي سنة ٢٧٠ م تولى عرش روما الإمبراطور أورليانوس وذلك بعد وفاة الإمبراطور السابق كلوديوس أورليوس، وقد باركت له زنوبيا هذا المنصب وأقرت له مرة ثانية بسيادة روما على وادي النيل ومشاركة تدمر لهم في حكمها، وهذا ما تم تأكيده عن طريق صك النقود التي تحمل صورة الإمبراطور أورليانوس رفقة صورة ابنها وهب اللات، ولكن الإمبراطور أورليانوس لم يكن راضيا عما فعلته زنوبيا وتعديها في نظرهم على أملاك الأمبراطورية الرومانية ولهذا فقد قرر أن يعمل على كسر شوكتها والقضاء عليها، وقد جاهر في مجلس الشيوخ بأنه زاحف بجيوشه إلى الأقطار الشرقية[١٨]وأول شيء فعله هو إصدار أوامره إلى عامله بروبوس بالتقدم نحو مصر رفقة جيشة للقضاء على التدمريين، وفضل هو التوجه لتأديب القبائل المتبربرة من القوط وصد هجماتهم على ضفة الدانوب، ويقول الأب سيباستيان رنزنفال اليسوعي نقلا عن روسيموس: " أن السبب الذي تعلل به أورليانوس لمحاربة زينب إنما كانت غارة شنتها على بلاد بثنية ، ولطالما سعت الملكة زنوبيا من قبل للاستيلاء على هذه المدينة أيام الإمبراطور غالينوس، وجهت الملكة زنوبيا جيشها للاستيلاء عليها وبالفعل دخلت الجيوش التدمرية مدينة بثنية وسيطروا عليها، ثم توجهوا نحو خلقيدون قرب القسطنطينية وقاموا بمحاصرتها واستنجد أهلها بأورليانوس لنجدتهم لأنهم كانوا يكرهون التدمريين، ولكن هذا الأخير لم يستطع نصرتهم وقتها لأنه كان مشغولا بمحاربة القبائل البربرية من القوط وغيرهم التي كانت تهدد أمن الإمبراطورية الرومانية [١٩].ولما علمت الملكة زنوبيا بنوايا أورليانوس تجاهها قررت إلغاء الاتفاق الذي عقدته مع روما، كما تخلت عن صورة أورليانوس التي كانت على النقود واحتفظت بصورة ابنها وهب اللات فقط مع لقب الإمبراطور الروماني على النقود، كما أضافت لقب ملك الملوك عليه وأعلنت استقلالها التام عن روما، كما تلقبت بلقب ملكة وأمرت بوضع صورتها على النقود مع نقش اسمها عليها، أرسلت الى ملكة بلاد الغال فيكتوريا وطلبت منها توحيد الجهود في مهاجمة الإمبراطورية الرومانية واقتسام ممتلكاتها[٢٠].

رابعاً: سقوط تدمر ونهاية حكم زنوبيا

يشهد التاريخ ان زنوبيا عرفت بشجاعتها الى جانب جمالها، وقد أعلنت انفصالها واستقلالها عن روما لمدة ٥ سنوات قبل ان يقود الامبراطور الروماني أورليانوس جيشا عرمرماً ويغزو تدمر ويحرقها بعد معارك دامية وقتال ضارٍ مع جيش زنوبيا[٢١] . المواجهة بين زنوبيا وأورليانوس كانت احد أهم احداث التاريخ ومصدر الهام للكثير من الشعراء والأدباء والثوار في القرون التي تلتها ومادة مثيرة للمؤرخين وعلماء الآثار الذين مازالوا حتى اليوم يزورون تدمر للبحث عن أسرار زنوبيا والظروف التي جعلتها تقوم بأكبر حركة تمرد على أعظم امبراطوريات التاريخ وأطولها عمراً[٢٢]. زوج زنوبيا أذينة كان ملقبا بسيد آسيا الرومانية، اشتهر بمواجهاته العنيفة مع الفرس وبعد هجماتهم وغزواتهم ضد الأراضي التابعة لروما شرقي المتوسط، قتل أذينة في ظروف غامضة عام ٢٦٧ وتتهم بعض الروايات زنوبيا بقتله، كونها تسلمت السلطة بعد رحيله نيابة عن ابنها الصغير وهب اللات الذي حكمت باسمه وسعت لتعزيز مستقبله وتأسيس دولة قوية ليتسلمها منها[٢٣]. اثار تزايد نفوذ تدمر قلق روما بشدة فأرسل لها الامبراطور قوات لإعادة بسط سلطته المركزية على الأراضي التي تحكمها زنوبيا، لكن الأخيرة سحقت القوات الزاحفة نحوها ولم تكتف بذلك بل استغلت بعض الاضطرابات الداخلية في روما فوسعت حملتها محتلة أجزاء من تركيا والعراق، اضافة الى سورية ولبنان وفلسطين ومصر التي غزتها حتى امتدت مملكتها من النيل الي الدردنيل، ما أدى الى تهديد حقيقي لروما وقطع سبل مواصلاتها بين الغرب والشرق وتزويدها بالمؤن والذهب والتوابل وغيرها. مع وصول أورليانوس الى الحكم في روما سعى الى التفاوض معها لكبح جماح طموحها وعرض عليها

امتيازات ومكاسب رسخت استقلالها وصورتها كملكة مكتملة الصلاحيات امام شعبها الذي كان شديد التعلق بها[٢٤] رضخت زنوبيا في بادئ الأمر وصرفت اهتمامها الى التجارة مع الحبشة وشبه الجزيرة العربية وضربت النقود في انطاكيا والاسكندرية واضعة على جهة منها صورة ابنها وهب اللات وعلى الأخرى صورة أورليانوس، لكن مع تعاظم قوتها طلبت الملكة إزالة صورة امبراطور روما عن النقود الخاصة في مملكتها وهو ما كان بمثابة انذار واستفزاز للامبراطور الذي توعد بسحق زنوبيا وجيشها وأخذ يعد العدة لذلك[٢٥].وفي عام ٢٧١م امر أورليانوس بتجهيز جيشين لتدمير ملكة تدمر، وكان احدهما بقيادة بروبوس الذي كلف باحتلال مصر وقام بذلك، والآخر بقيادة أورليانوس نفسه توجه الى انطاكيا عبر تركيا، حيث واجه جيش زنوبيا واشتبك الجيشان في معارك حامية الوطيس وكاد الجيش التدمري من تحقيق النصر لولا استمالة بروبوس للمصريين الذين تحولوا إلى صفه وساعدوه في التغلب على جيش زيدا وإلحاق الهزيمة به ودحره خارج مصر وكان ذلك سنة ٢٧١ م، وبالتالي كانت هذه الهزيمة هي الخطوة الأولى في انحسار المد التدمري في المشرق، وجاء خبر فقدان مصر كالصاعقة على الملكة زنوبيا وأحست فعلا بالخطر الروماني القادم بقوة، وعند وصول القائد زبدا قادما من مصر كانت الملكة زنوبيا تتهيأ لمحاربة الرومان، وقد جمعت من حولها كل مؤيديها والتابعين لها من جميع الممالك التابعة لها ووضعتها تحت إمرة القائدين زبدا وزباي، وقسمت قواتها إلى ثلاث فرق حيث سلكت الفرقة الأولى طريق حلب، والثانية طريق حمص، والثالثة بطريق القريتين، وتقدمتهم الملكة زنوبيا[٢٦] .

ودارت معارك طاحنة بين الطرفين انتهت الى انكسار جيش تدمر وتراجع فلوله وبينهم زنوبيا نحو حمص اولا ثم تدمر المحصنة بالأبراج والأسوار والمنجنيق وكتل النار، طلبت زنوبيا من جيشها الصمود وعندما وصل أورليانوس الى تخوم تدمر وشاهد استعداداتها الدفاعية عرض على زنوبيا الصلح، لكنها رفضت، فواصل حصاره مستغلا نفاد المؤن في المدينة المحاصرة، وبعد ان يئس من احتمالات الصلح قرر الهجوم على تدمر التي احتلها جيشه والقى القبض على قادة جيش غريمته وأحالهم للمحاكمة، ثم أعدمهم، بينما فرت زنوبيا شرقا نحو الفرات، حيث طاردها الرومان حتى القوا القبض عليها بعد وشاية من احد المقربين منها على الأرجح[٢٧].

لحظات **الهجوم الروماني** على تدمر في مشهد الهجوم على تدمر يطلب أهل المدينة من زنوبيا ان تهرب، لكنها ترفض وتقول ان كأس الموت أسهل بالنسبة لي من الهرب، وترد عليهم: وأنتم لماذا لا تهربون؟ فيجيبون بأنهم «عشب الأرض» الذي يستطيع الانحناء أمام العاصفة القادمة والتي لا تستهدف العشب بل تستهدف الورد العالي، ولا شك في ان زنوبيا هي اعلى وردة وهي الرمز الذي يستهدفه الغزاة[٢٨] .

ومن المشاهد المؤثرة ايضا والمحفورة في ذاكرة التاريخ، المواجهة بين أورليانوس وزنوبيا لحظة احضارها اليه بعد القبض عليها عام ٢٧٢م، حيث يطالبها بالاعتراف بهزيمتها ويسألها عن أسباب رفضها للصلح فتجيبه الملكة: إن تدمر التي انكسرت وروما التي انتصرت ستتحولان في النهاية الى كومة من الحجارة وانه لابد في كل مكان وزمان ان تكون هناك «روما» لتطغى وتظلم وستقابلها «تدمر» التي ترفض الظلم لأن تدمر هي رمز الحرية، والحرية لا يمكن ان تتعايش مع الظلم[٢٩] . طالب كبار القادة أورليانوس بقتل زنوبيا إلا ان الامبراطور لم يقوه على اتخاذ هذا القرار، فأمر بنقلها الى روما، فقام قصير ومعه مجموعة من الرجال من بينهم عمرو بن عدي وضعهم في غرائر كبيرة ولما وصلوا المدينة وضعت الغرائر وخرج منها رجال قصير واستلوا سيوفهم على أهل المدينة، وفي هذا الوقت حاولت الزباء الهرب ولكن عمرو بن عدي كان لها بالمرصاد فامتصت السم الذي بخاتمها وقالت له بيدي لا بيدك يا عمرو وهكذا تم انتهاء حياة زنوبيا [٣٠] .

الخاتمة :

توصل البحث إلى أن زنوبيا ملكة تدمر مثّلت إحدى الشخصيات السياسية البارزة في تاريخ المشرق القديم خلال القرن الثالث الميلادي إذ استطاعت في ظل الظروف المضطربة التي شهدتها الإمبراطورية الرومانية أن تستثمر المكانة الاقتصادية والاستراتيجية لتدمر وأن توظف الإرث السياسي والعسكري الذي خلفه زوجها أذينة في تعزيز نفوذها وتوسيع نطاق سلطتها ولم يكن صعودها إلى الحكم مجرد انتقال للسلطة في إطار الأسرة الحاكمة بل ارتبط بتحولات سياسية عميقة أسهمت في انتقال تدمر من موقع الحليف القوي لروما إلى قوة إقليمية سعت إلى فرض نفوذها على عدد من الأقاليم الشرقية وأظهرت الدراسة أن نجاح زنوبيا في إدارة شؤون المملكة ارتبط بتفاعل مجموعة من العوامل في مقدمتها الموقع الجغرافي لتدمر وما تمتعت به من موارد اقتصادية ومكانة تجارية مهمة فضلا عن امتلاكها قوة عسكرية أتاحت لها التحرك خارج حدودها وقد أسهم ضعف السلطة المركزية الرومانية خلال أزمة القرن الثالث الميلادي في تهيئة الظروف المناسبة لتوسع تدمر الأمر الذي مكّن زنوبيا من بسط نفوذها على مناطق واسعة من المشرق وصولا إلى مصر نحو سنة ٢٧٠م التي شكّلت السيطرة عليها خطوة استراتيجية مهمة لما تمتلكه من موارد اقتصادية ومكانة حيوية في منظومة الإمبراطورية الرومانية كما بيّن البحث أن التوسع التدمري في عهد زنوبيا لم يكن مجرد تحرك عسكري محدود بل عكس طموحا سياسيا متناميا لتأسيس سلطة واسعة النفوذ في الشرق وهو ما أدى إلى تصاعد التنافس مع روما وقد شكّلت

مواجهة زنوبيا للإمبراطور أوريليان اختبارا حاسما لقدرة المشروع التدمري على الاستمرار إذ تمكنت القوات الرومانية من استعادة زمام المبادرة العسكرية وانتهت حملاتها بسقوط تدمر سنة ٢٧٢م الأمر الذي أدى إلى انهيار المشروع الإمبراطوري لزنوبيا وإعادة إخضاع المنطقة للسلطة الرومانية وتكشف دراسة أسباب سقوط تدمر أن الطموح السياسي والتوسع الجغرافي على الرغم من أهميتهما في بناء القوة لا يكفيان لضمان استمرارها ما لم تدعمهما مقومات عسكرية وسياسية واقتصادية قادرة على مواجهة القوى المنافسة فقد واجه المشروع التدمري تحديات تمثلت في اتساع رقعة المناطق الخاضعة لنفوذه وتصاعد المواجهة مع روما وقدرة أوريليان على إعادة تنظيم القوة العسكرية الرومانية وتوجيهها نحو استعادة الأقاليم الخارجة عن سلطتها وفي ضوء ذلك يمكن القول إن تجربة زنوبيا تمثل نموذجا تاريخيا للتفاعل بين الطموح السياسي والفرص التي تتيحها الأزمات الإمبراطورية كما توضح الدور الذي يمكن أن تؤديه القيادات المحلية في إعادة تشكيل موازين القوى الإقليمية وعلى الرغم من انتهاء مشروعها بسقوط تدمر فإن تجربتها ظلت شاهدا على المكانة التي بلغتها المدينة في القرن الثالث الميلادي وعلى قدرتها في مرحلة من مراحل تاريخها على منافسة السلطة الرومانية في الشرق وبذلك لا تقتصر أهمية زنوبيا على كونها ملكة انتهى حكمها بالهزيمة بل تتجاوز ذلك إلى كونها شخصية ارتبطت بمحاولة سياسية وعسكرية طموحة لإعادة رسم خريطة النفوذ في المشرق القديم

المصادر والمراجع :

- ابي حسن المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، المكتبة العصرية، لبنان، ٢٠٠٥.
- ابي جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر، ٢٠٠٤.
- احمد علي الناصري، تاريخ الرومانية السياسي والحضاري، الطبعة الثانية، دار النهضة العربية، مصر، ١٩٩١.
- احمد بيومي مهران، دراسات في تاريخ العرب القديم، دار المعرفة الجامعية، مصر،٢٠٠٤.
- الأب سبستيان رزنفال الياسوعي، زينب الزباء ملكة تدمر، مجلة الشرق، المطبعة الكاثوليكية للأبلاء الياسوعيين، لبنان، ١٨٩٨.
- أنطوان مراد، قصة وتأريخ الحضارة العربية، جزء٥-٦، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ١٩٩٩.
- برنار سيموث، الأوراق السرية لمكلة تدمر زنوبيا، الطبعة الأولى، دار دمشق للطباعة والنشر، سوريا، ١٩٩٥.
- جواد علي، المفصل في تأريخ العرب قبل الإسلام، جزء٣، دار ساقي للطباعة، ١٩٩٣، ص١١٦ .
- عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ تأريخ العرب والبربر ومن عاصرهم، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان،٢٠١٣ .
- عبد الرحمن الحلو، صراع المماليك في تاريخ السوري القديم وسقوط المملكة التدمرية، دار بيسان للنشر والتوزيع، ١٩٩٩، ص٣٤٥.
- قيس هاني حاتم الجنابي، العلاقات السياسية بين تدمر والرومان، مجلة جامعة بابل،العدد١٦، العراق، ٢٠٠١، ص٢٠٥ .

---

(١) أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر، ٢٠٠٤، ص ٦١٨.

(٢) أبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، الطبعة الأولى، المكتبة العصرية، لبنان، ٢٠٠٥، ص٧٤-٧٥ .

(3) حلمي محروس إسماعيل، الشرق العربي القديم وحضارته، دار مؤسسة شباب الجامعة، مصر، ١٩٩٧، ص٢٨٧.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٩٢.

(٥) عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ تأريخ العرب والبربر ومن عاصرهم، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان، ٢٠٠٠، ص٣١٣ .

(٦) محمد بيومي مهران، دراسات في تاريخ العرب القديم، دار المعرفة الجامعية، مصر،٢٠٠٤، ص٥٤٦.

(٧) أنطوان مراد، قصة وتأريخ الحضارة العربية، جزء٥-٦، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ١٩٩٩، ص٣٦.

(٨) برنار سيموث، الأوراق السرية لمكلة تدمر زنوبيا، الطبعة الأولى، دار دمشق للطباعة والنشر، سوريا، ١٩٩٥، ص١٧٤.

(٩) المصدر نفسه، ص١٧٥.

(١٠) برنار سيموث، مصدر سابق، ص١٧٦.

(١١) حلمي محروس إسماعيل، مصدر سابق، ص٢٨٨.

(١٢) حلمي محروس إسماعيل، مصدر سابق، ص٢٨٨.

(١٣) الأب سبستيان رزنفال الياسوعي، زينب الزباء ملكة تدمر، مجلة الشرق، المطبعة الكاثوليكية للأبلاء الياسوعيين، لبنان، ١٨٩٨، ص٨٢٤ .

(١٤) المصدر نفسه، ص٨٢٣ .

(١٥) احمد علي الناصري، تاريخ الرومانية السياسي والحضاري، الطبعة الثانية، دار النهضة العربية، مصر، ١٩٩١.ص٣٧٩.

(١٦) الأب سبستيان رننفال الياسوعي ، مصدر سابق، ص٨٢٧ .

(١٧) الاب سبستيان رزنفال اليسوعي، مصدر سابق، ص٩١٨ .

(١٨) عبد الرحمن الحلو، صراع المماليك في تاريخ السوري القديم وسقوط المملكة التدمرية، دار بيسان للنشر والتوزيع، ١٩٩٩، ص٣٤٥.

(١٩) الأب سبستيان رننفال الياسوعي ، مصدر سابق، ص١٠٣٣ .

(٢٠) جواد علي، المفصل في تأريخ العرب قبل الإسلام، جزء٣، دار ساقي للطباعة، ١٩٩٣، ص١١٦ .

(٢١) قيس هاني حاتم الجنابي، العلاقات السياسية بين تدمر والرومان، مجلة جامعة بابل،العدد١٦، العراق، ٢٠٠١، ص٢٠٥ .

(٢٢) الأب سبستيان رننفال الياسوعي ، مصدر سابق، ص١٠٣٤.

(٢٣) جواد علي، مصدر سابق، ص١١٧ .

(٢٤) قيس هاني حاتم الجنابي، مصدر سابق، ٢٢٥ .

(٢٥) الأب سبستيان رننفال الياسوعي ، مصدر سابق، ص١٠٣٥ .

(٢٦) حلمي محروس إسماعيل، مصدر سابق، ص٢٩٤ .

(٢٧) الأب سبستيان رننفال الياسوعي ، مصدر سابق، ١٠٣٧ .

(٢٨) مطران يوسف الدبس، تأريخ سوريا الديني، دار نظير عبود للطباعة والنشر، دمشق،١٩٩٧، ص٤١ .

(٢٩) الأب سبستيان رننفال الياسوعي ، مصدر سابق، ١٠٣٧ .

(٣٠) ابي حسن المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، المكتبة العصرية، لبنان، ٢٠٠٥، ص٧٧ .